

مقياس: مقاربات نقدية معاصرة

السنة: الثانية ليسانس تخصص دراسات نقدية

الأستاذة: كعبش ريمة

محاضرة: المنهج النفسي

تمهيد:

عرف المنهج بأنه مجموعة من القواعد و العمليات الإجرائية المطبقة في مجال علمي ما، و لأن النقد الأدبي علم غني بدراسة الأعمال الأدبية الإبداعية، كان لا بد له من استقاء منهجياته و آلياته في التحليل من عدة علوم مختلفة، و من هنا ظهرت المناهج النقدية في الأدب، فكان منها المنهج التاريخي الذي وظف النظريات التاريخية من علم التاريخ، و المنهج الاجتماعي الذي وظف نظريات علم الاجتماع و إجراءاته، و المنهج النفسي، الذي تناول نظريات علم النفس، و مفاهيمه و إجراءاته و طبقها على النص الأدبي.

1- مفهوم المنهج النفسي:

عُرف المنهج النفسي في النقد العربي الحديث بمسميات عدة، كان منها النقد السيكولوجي، و النقد النفسي، و منهج التحليل النفسي... و غيرها من التسميات، و لكن المنهج النفسي في النقد العربي الحديث لم يُعرف بملامح و حدود واضحة كما عرف في النقد الغربي، إذ ورد في أماكن متفرقة من كتب النقاد العرب، إلا أنه حيث ورد، حمل التعريف ذاته الذي حمله في النقد الغربي، و استمد النظريات الغربية ذاتها التي استمدها النقد الغربي في تحليل الأدب، و هو بذلك لا يزال نقدا اتباعيا للنقد الغربي. و يُعرف المنهج النفسي في النقد العربي الحديث بأنه المنهج الذي يعتمد نظرية التحليل النفسي التي أسسها الطبيب النمساوي فرويد في تطبيقاته النقدية، و التي حاول من خلالها تفسير السلوك البشري، و إرجاعه إلى منطقة اللاوعي و اللاشعور لدى الإنسان.

كما يُعرف أنه المنهج الذي يحاول تطبيق نظريات علم النفس السريري على النص الأدبي، من خلال تحليل نفسية الأديب عندما كتب نصه الأدبي، للتعرف على خصائصه الشخصية، و العقد النفسية التي يعاني منها؛ بسبب أحداث مرت به في طفولته أو فترات لاحقة من حياته، و انعكست في نصه

الأدبي، و الشخصيات الأدبية في النص التي تتشابه و شخصيته، باعتبار النص وثيقة نفسية تكشف عن الحالات النفسية للأديب.

لقد عُدَّ المنهج النفسي في النقد العربي الحديث وسيلة للكشف عن قدرة النص الأدبي في التعبير عن مضمون اللاوعي لدى الأديب و المستويات النفسية العميقة لديه، من خلال دراسة الأدب على مستويين، مستوى النص الأدبي و ما كتب فيه، و مستوى الشخصية المُضمَّنة في النص الأدبي، آخذا بعين الاعتبار العديد من العناصر الأساسية التي يتكون منها أي نص أدبي، و هي: المجاز و الاستعارة و الكناية، و المشاعر النفسية المختلفة كالحب و الكراهية، و الرغبة لدى الأديب، و مدى علاقتها بالبنى الاجتماعية و الثقافية في المجتمع.

2- نشأة المنهج النفسي:

لكل منهج جذور، و المنهج النفسي يعود بتاريخه إلى العهود القديمة، حيث نجد أن أفلاطون قد تحدث عن هذا المنهج، فقد وجد أن العواطف تؤثر على الإنسان بشكل كبير، و لأن الشعر يحرك عواطف الإنسان فقد قام بطرد الشعراء من مدينته الفاضلة.

أما إذا عدنا إلى العرب فسنجد أنهم قد تحدثوا عن عملية الخلق الفني، و أول من تحدث عنها من الناحية النفسية هو ابن قتيبة، و لقد كان ذا خبرة بأحوال النفس، فحدد الوقت المناسب لقول الشعر، حيث وجد أن معظم الشعراء ينظمون شعرهم في أول الليل، الخلو، المسير، صدر النهار، و في الأمراض و العلل.

و لم يكن ابن قتيبة الوحيد في هذا المجال، فالقاضي الجرجاني قام بتحليل الملكة الشعرية، و قال بأن الشعر يدل على نفسية و طباع الشاعر، فمن كان شعره سلسا و سهلا فإن نفسه سمحة، و من كان شعره فظا فإن شخصيته فظة، و من كان شعره رقيقا فهذا يدل على رقة مشاعره.

كما أن ابن طباطبا قد تحدث عن الجانب النفسي في الفن، و قال بأن القارئ إن ارتاح إلى النص فهذا يعني أن نفسية كاتبه مريحة.

أما المنهج النفسي بوصفه منهجا قائما بذاته فلم يظهر عند الغرب إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور علم النفس و ظهور رائده سيغموند فرويد، حيث قال فرويد أن العمل الأدبي له هدف و غاية يسعى الأديب لإيصالها من خلاله، فقد يعبر الأديب في أدبه عن رغبات مكبوتة لا يستطيع إشباعها في الواقع، فيقوم بإسقاطها على شخصيات عمله، لذلك رأى فرويد أن دراسة شخصية القصة ستدل على حالة الكاتب الشخصية و رغباته المكبوتة، و يرى فرويد أن مرحلة الطفولة تلعب دورا في حياة الأديب، فإن عانى من رغبات مكبوتة فإنها ستظهر بشكل جلي في أدبه.

و وافق يونغ تلميذ فرويد أستاذه في بعض الجوانب لكنه رفض مغالاته في حصره الإبداع الفني تحت إطار العقد النفسية.

أما أدلر فخالف فرويد في أفكاره و قال بأن التعلق بالحركة لإثبات الذات هي الدافع الأساسي و المحرك الرئيسي للإبداع في النفس البشرية.

و في العالم العربي ظهر المنهج النفسي في النقد العربي الحديث في عدد من الدراسات البحثية التطبيقية، فقد كانت نشأته على يد أمين الخولي عام 1945 في بحث منشور له بعنوان علم النفس الأدبي، أتبعه بكتاب البلاغة و علم النفس، تلاه بعد ذلك محمد خلف عام 1947 في كتابه الوجهة النفسية في دراسة الأدب و نقده، و كان من أبرز مظاهر ظهور المنهج النفسي في النقد العربي الحديث، نشأة مدرسة علم نفس الإبداع في منتصف القرن التاسع عشر، على يد مصطفى سويف، و كان لها إنجازات فريدة ضمن المنهج النفسي، و كان كتاب سويف "الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة" نقطة ارتكاز جوهرية للعديد من الدراسات النقدية اللاحقة عن الأجناس الأدبية، فكتبت سامية الملة كتاب الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرح، و كتب شاكر عبد الحميد الأسس النفسية للإبداع الفني في القصة القصيرة.

3- مبادئ المنهج النفسي:

يقوم المنهج النفسي على مجموعة من المبادئ، و هي:

- ثمة علاقة لاشعورية وثيقة بين النص الأدبي و الأديب، فالنص الأدبي مرتبط بلاشعور صاحبه.
- وجود بنية نفسية متجذرة في لاوعي المبدع تتجلى بشكل رمزي على سطح النص، و أثناء التحليل لابد من استحضار هذه البنية.
- اعتبار الشخصيات الموجودة في العمل الأدبي شخصيات حقيقية بحتة؛ لأنها تعبر عن رغبات و وقائع حقيقية مكبوتة في لاشعور المبدع.
- الأديب شخص عصابي يحاول أن يعرض رغباته المكبوتة في شكل رمزي مقبول اجتماعيا.

4- عيوب المنهج النفسي:

رغم أنّ المنهج النفسي حاول كثيرا الكشف عن البنيات الشعورية لدى الأديب من خلال الحفر في البنيات اللغوية، إلا أنه وقع في مزالق كثيرة نتجت عن محاولة استنتاج النصوص الأدبية استنتاجا تعسفيا، وهذه المزالق هي:

- اهتّم المنهج النفسي بالأديب و تجاهل النص الأدبي، فمن خلال المنهج النفسي يظهر الأدب و كأنه تعبير عن الحالات الشاذة و الرغبات المكبوتة و هذا الأمر غير صحيح.

- أخضع المنهج النفسي النص الأدبي للتحليل الإكلينيكي، مما جعل هذا التحليل أقرب إلى التشخيص السريري منه إلى التحليل الأدبي، فهذا المنهج يعتمد على الفرضيات و الكشوفات التي يقوم باكتشافها علم النفس، دون الأخذ بعين الاعتبار أن هذه النظريات قد تكون خاطئة أو لا يمكن تطبيقها على الأديب.

- أغفل المنهج النفسي الشعور عند المبدع إغفالاً تاماً، عندما أرجع إبداع الأديب إلى لا وعيه الناتج عن الكبت المرضي، و نزوات الماضي، و عقده النفسية.

- جعل النص الأدبي دائماً تعبيراً عن الذات، من خلال ليّ عنق النص، و إخضاعه لهذه الفكرة، مما جعله غير قادر على تحديد العلاقة بين الأديب و العمل الأدبي، و المساواة بين العمل الأدبي الجيد و العمل الأدبي الرديء؛ كون النص الأدبي وثيقة نفسية على صاحبه لا غير، و لا مجال فيه للكشف عن جوانب الإبداع المتفردة لدى الأديب.

المراجع:

- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2007
- وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007
- محمد صايل حميدان: قضايا النقد الأدبي الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الأردن، ط1، 1991